

دورية أكاديمية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة
المركز الجامعي أحمد بن يحيى النشرسي
تيسمى

دراسات معاصرة

Contemporary Studies

مجلة نصف سنوية محكمة تُعنى بنشر الأبحاث العلمية الأدبية والنقدية واللغوية والفكرية
تصدر عن مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة المركز الجامعي أحمد بن يحيى
النشرسي تيسمى

العدد الأول

دراسات معاصرة

مجلة نصف سنوية محكمة تُعنى بنشر الأبحاث العلمية الأدبية والنقدية واللغوية والفكرية
تصدر عن مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي
تيسمسيلت

العدد الأول
مارس 2017

المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت
الجزائر

توجه المراسلات إلى إدارة المخبر والمجلة
معهد الآداب واللغات المركز الجامعي
تيسمسيلت 38000 الجزائر
أو عبر البريد الإلكتروني
elicrimocut@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رئيس المجلة:

أ.د. العتيقي أحمد

المدير المسؤول عن النشر:

د.بن علي خلف الله

مدير المركز الجامعي تيسمسيلت

مدير مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة

الجزائر

المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

رئيس التحرير:

د.فايد محمد المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر.

هيئة التحرير:

- د.مصاييح محمد/المركز الجامعي تيسمسيلت.
د.علي سحنين/جامعة معسكر/الجزائر.
د.عطار خالد/المركز الجامعي تيسمسيلت.
د.مرسلي مسعودة/المركز الجامعي-تيسمسيلت
د.طعام شامخة/المركز الجامعي تيسمسيلت.
د.شريف سعاد/المركز الجامعي تيسمسيلت
د.بولعشار مرسللي/المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر.
د.فتح الله محمد/المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر.
أ.رافة العربي/المركز الجامعي تيسمسيلت.
أ.كمال الدين عطاء الله/جامعة حسيبة بن
بوعلي-الشلف.

الهيئة العلمية الاستشارية:

- أ.د./مخلوف عامر/ جامعة طاهر مولاي-سعيدة/الجزائر.
أ.د./عقاق قادة/ جامعة جيلالي لباس-سيدي
بلعباس/الجزائر.
أ.د./بلوحي محمد/ جامعة جيلالي لباس-سيدي
بلعباس/الجزائر.
أ.د./عمار بن زايد/جامعة الجزائر
أ.د./غني ضياء العبودي/جامعة ذي قار/العراق.
أ.د./مباركي بوعلام/ جامعة طاهر مولاي-سعيدة/الجزائر.
أ.د./غربي شميصة/ جامعة جيلالي لباس-سيدي
بلعباس/الجزائر.
د.علاوة كوسة/المركز الجامعي ميلة/الجزائر.
د.رشيد بلعيفة/جامعة عباس لغرور-خنشلة/الجزائر.
د.مكيكة محمد جواد/جامعة ابن خلدون-
تيارت/الجزائر.
د.بلمصاييح خالد/المركز الجامعي تيسمسيلت/الجزائر.
د.غربي بكاي/المركز الجامعي تيسمسيلت/الجزائر.
د.بولخراص محمد/جامعة ابن خلدون-تيارت/الجزائر.
د.فايد محمد/المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر.
د.فريد أمعشوشو/الكلية متعددة التخصصات/الناظور/
المغرب.
د.مجدي خضر الكردي/جامعة القدس المفتوحة-
غزة/فلسطين.
د.حنان يوسف/جامعة الاسكندرية/مصر.
د.بن علي خلف الله/المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر
د.صباح لخضاري/المركز الجامعي النعامة/الجزائر.
د.بوعرارة محمد/المركز الجامعي تيسمسيلت/الجزائر.
د.عطار خالد/المركز الجامعي تيسمسيلت/الجزائر.
د.هدروق لخضر/المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر.
د.مصاييح محمد/المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر.
د.منقور صلاح الدين/جامعة ابن خلدون-
تيارت/الجزائر.

شروط النشر:

تتشر مجلة دراسات معاصرة الأبحاث العلمية الأدبية والنقدية واللغوية والفكرية، من داخل الجامعة الجزائرية وخارجها، مكتوبة باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية. ويشترط في البحث ألا يكون قد نشر أو قدم للنشر في أي مكان آخر، وعلى الباحث أن يتعهد بذلك خطياً عند تقديم البحث للنشر، وتخضع جميع البحوث للتقويم حسب الأصول العلمية المتبعة.

تعليمات للباحثين

تسلم نسخة الكترونية من البحث عبر الموقع elicrimocut@gmail.com

- 1- تحت برنامج Microsoft Word بصيغة doc أو بصيغة dox. وتكتب الهوامش في آخر البحث يدوياً
- 2- ألا يزيد عدد صفحات البحث عن 20
- 3- العناوين الرئيسية والفرعية: تستخدم داخل البحث لتقسيم أجزاء البحث حسب أهميتها، وبتسلسل منطقي.
- 4- يرفق البحث بملخص باللغة العربية.
- 5- لهيئة التحرير حق إجراء تعديلات تتعلق بنمط الكتابة، وبناء الجملة لغوياً بما يتناسب مع نموذج المجلة المعتمد لدينا.
- 6- قرار الهيئة المشرفة على المجلة بالقبول أو الرفض قرار نهائي مع الاحتفاظ بحقها بعدم إبداء الأسباب.
- 7- يزود الباحث بنسخة واحدة من العدد الذي نشر فيه بحثه.

كلمة رئيس التحرير

مجلة علمية جديدة، قد لا يكون إصدارها صعبا في بعض كبريات جامعات الوطن، التي تزخر بعدد العناوين، ولكن ذلك لم يتحقق بعد في مؤسستنا الجامعية الفتية، لأجل ذلك لم يغب عن أذهاننا ونحن نفكر في إنشاء فعل ثقافي جديد أننا قد نواجه صعوبات كثيرة، غير أن الرغبة في تجاوز السائد وكسر النمطية والرتابة جعلتنا نسعى بكل جهد لتجاوز كل المعوقات، وما كان ذلك ليتم لولا الدعم الكبير الذي حظيت به فكرة التأسيس لمجلة علمية محكمة تابعة لمخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة لصاحبه الدكتور بن علي خلف الله، من طرف الأستاذ الدكتور أحمد لعتيقي مدير المركز الجامعي النشرسي بتيسمسيلت، وله في هذا المقام خالص التقدير والاحترام.

ولما كان تأسيس مجلة علمية محكمة يرتبط أساسا بفريق علمي يضمن للمجلة ثقلها العلمي، شرعنا في الاتصال بنخبة من الباحثين في الوطن وخارجه، سعيا إلى التنوع في الهيئة المشرفة على المجلة، فكان ذلك الانسجام الجميل بين الأساتذة من المغرب الأقصى ومن فلسطين والعراق ومصر من خارج الجزائر، ومن جامعات الوطن ربطنا الاتصال بأساتذة أفاضل من جامعات مختلفة في شرق الوطن وغربه (سيدي بلعباس/ سعيدة/ تيارت/ تيسمسيلت/ خنشلة/ الجزائر/ ميلة/ معسكر/ الشلف/ النعامة)، والحق إننا ما طرقتنا بابا إلا ووجدنا ترحيبا جميلا وعليه فإننا نقف احتراما لكل هؤلاء الأفاضل الذين قبلوا الانتماء إلى مولود منتظر أو عبارة أدق قبلوا انتساب هذا المولود إلى قاماتهم السامقة في حقل البحث العلمي الرصين.

(دراسات معاصرة) تسمية اخترناها عنوانا شاملا لكل الأبحاث ذات الصلة بالعلوم الانسانية، كيما تتاح الفرصة للمشتغلين في حقل الفكر والثقافة والنقد والأدب واللغة للتواصل مع المجلة، التي تأمل مستقبلا أن تخصص أعدادا لمحاول معينة، أو أن تجعل مساحة من كل عدد لملفات تتراكم المساهمات البحثية المشتغلة عليها، ناهيك عن أملنا في أن تؤسس المجلة لتواصل بناء مع الباحثين عن طريق عدم الاكتفاء بنشر الأبحاث فقط، بل بإجراء حوارات مع الفاعلين الثقافيين بمختلف توجهاتهم المعرفية.

وفي هذا العدد من المجلة (وهو العدد التجريبي)، نقدّم للقارئ العربي عامة دراسات اهتم بعضها بمعطيات تراثية والتفت بعضها الآخر إلى قضايا نقدية معاصرة، وقد نتج عن ذلك مادة علمية عني أصحابها بالنقد الجزائري في علائقه بالمدارس النقدية الغربية، وبالممارسات النقدية اللسانية لدى عبد السلام المسدي، بالإضافة إلى رصد مساهمة جورج لوكاتش وميخائيل باختين ولوسيان غولدزمان في التنظير للرواية، في حين اهتمت أبحاث أخرى بالمدونة النقدية العربية القديمة في علائقها اللانهاية بالفكر النقدي المعاصر وهو ما نترك للقارئ فرصة الاطلاع عليه.

وإذ تشكر المجلة المساهمين في هذا العدد، فإنها تضرب لهم مواعيد مستقبلية يحركها رغبة كبيرة في التأسيس لفعل بحثي مستمر، يرشد الصنيع الجميل الذي تقوم به عديد المجالات في الوطن وخارجه.

والله الموفق

فايد محمد/رئيس التحرير

محتوى العدد:

- 10..... - تحولات النقد الجزائري وانفتاحه على النقد الغربي النصائي
د. بن علي خلف الله المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 22..... - الملمح التداولي الوظائف للمفاهيم النحوية في مدونتنا التراثية
د. العربي بومسحة المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 30..... - الإشكالية الإجناسية في النقد العربي القديم وانعكاسها في النقد العربي المعاصر
د. بوغاري فاطمة جامعة البليدة 2 كلية الآداب واللغات
- 36..... - النظرية النقدية القديمة في الشعرية العربية
د/ مصايح محمد المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 53..... - ممارسات في النقد اللساني عند عبد السلام المسدي
د. بن فريجة الجيلالي المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 60..... - مقدمات في نظرية الرواية.. لوكاتش، غولدمان، باختين
د. فايد محمد المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 83..... - جدلية الهوية الفردية والجماعية في شعر الحطّية (قراءة هرمنيوطيقية)
د. بوركة بختة المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 90..... - المصطلح السيميائي و التراث العربي
د. ديبح محمد جامعة ابن خلدون تيارت
- 107..... - إساءة قراءة التراث النقدي عند المعاصرين قدامة بن جعفر نموذجاً استدلالياً
د. دردار بشير المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت
- 120..... - المنجز النقدي القديم بين المقاربات السياقية وأسئلة الحداثة
د. مكينة محمد جواد جامعة ابن خلدون تيارت
- 142..... - الخطاب النقدي لدى جابر عصفور: بين نداء الأقباصي ومكائد التحديث
د. معازيز بوبكر جامعة ابن خلدون تيارت
- 155..... - هوس التراث في كتابات عبد الفتاح كيليطو
د. هامل شيخ المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت

مقدمات في نظرية الرواية.. لوكاتش، غولدمان، باختين

د/فايد محمد

قسم اللغة العربية وآدابها

المركز الجامعي - تيسمسيلت

تمهيد:

سنعرض في هذه الورقة البحثية مجموعة من الآراء والأفكار والإشارات ذات الصلة بنظرية الرواية، بالتركيز على بعض إسهامات أبرز رواد هذه الأخيرة، لأنّ الإحاطة بكلّ تفاصيلها يتطلب دراسة مستقلة، والأعلام الذين سنركّز على طرحهم هم تبعاً: جورج لوكاش George Lukàcs، ولوسيان جولدمان Lucien Goldmann، وميخائيل باختين Mikhail Bakhtin.

-جورج لوكاش.. الملحمة والرواية.. رحلة البحث عن قيم أصيلة:

أضحى من البديهي القول إنّ الرواية حازت مكانة مهمّة لا ينافسها عليها شكل تعبيريّ آخر، حتّى أنّ النقاد أحاطوها باهتمامهم، ويندر أن لا تتضمن دراسة نقدية، أو تاريخية فصلاً أو مبحثاً يفرد للحديث عن الرواية، تعريفاً ونشأة وتطوراً¹، بل إنّ كثيراً من الدراسات تُخصّص للرواية وحدها، مع اهتمام كبير بالعلائق التي تربط بين الرواية والأجناس الأدبية الأخرى².

وقد أفضت تلك العلائق إلى طرح أسئلة كثيرة من قبيل: هل يمكن أن تُعتبر الرواية شكلاً أدبياً جديداً؟ وهل من سبيل إلى إيجاد حدود فاصلة بينها وبين أشكال أخرى، ومعارف أخرى مثل

التاريخ والملحمة؟ على أنّ الإجابة التي يمكن أن تكون مقبولة، هي القول: إنّ الرواية تُمثّل جنساً مزيجاً تمتدُّ أصوله إلى أجناس أدبية مختلفة³، وأن لا جدوى من محاولة تلمّس مواطن انفصالها التام عن أشكال التعبير الأدبي الأخرى، وهذه سمة لا يمكن أن تُغيّب ساعة الحديث عن العلوم الإنسانية.

يدفعنا الحديث عن نظرية الرواية إلى الإشارة إلى كون هذه الأخيرة "نظرية أوربية بامتياز"⁴ استناداً إلى أنّ أولى الاهتمامات بالتأصيل للرواية كانت في أوروبا، وقد صدرت هذه النظريات (النظرية)⁵ عن مقولات فلسفية متعدّدة المشارب، الأمر الذي أفرز تعدّداً واختلافات أثّرت وأغنت نظرية الرواية، وأصّلت للرواية. ويكاد الاهتمام بنظرية الرواية لا ينقطع، حتّى أنّه يشكّل حلقة نقاش لا ينتهي، حلقة نقاش لا يزيد بها اختلاف الرّؤى إلّا تطوّراً ويزيدها استناداً على مقولات فلسفية لا تمارس القطيعة مع ما سبقها من مقاربات نزعاً كما تنزع هي إلى تأويل الظواهر الإنسانية المختلفة، ترابطاً وتماسكاً أفرز معرفة بالرواية زامنت تطوّر الرواية في الغرب ووصولها إلى ما وصلت إليه عن طريق مسالك تجريب لا تنتهي. تتميز نظرية الرواية عند لوكاش بانقسامها إلى قسمين (مرحلتين)، أو إلى نظريتين، ترتسم ملامح

الأولى من خلال كتابيه (نظرية الرواية) الذي كُتب سنة 1914 ونُشر سنة 1920، و(التاريخ والوعي الطبقي) الذي نُشر سنة 1923 - وقد تبرزاً منهما لاحقاً - . وتتجلى الثانية في المرحلة التي أعقبت نشره لتقريره حول الرواية ، الذي عنوانه لاحقاً بـ: (الرواية كملحمة بروجوازية) 1935 ، على أنّ التقسيم الزمني لا يمكن أن يكون مقنعاً كثيراً في محاولة فهم مسارات تفكير الباحثين في حقل العلوم الإنسانية.

إنّ التّحديد الذي صدر عن لوكاش اتجاه كتابيه (نظرية الرواية، والتاريخ والوعي الطبقي) -وهما سمة الفترة الشّبابية للفكر اللوكاشي- لم يُنقص من تداولهما، بل على العكس فإنّ (نظرية الرواية) يُعتبر أهمّ ما صدر له في التّنظير للرواية⁶ ، ومردّد ذلك إلى أنّ الأفكار والرؤى التي وردت في هذا الكتاب وأهمّها الرّبط بين الرواية والملحمة لم يستغن عنها صاحبها كلياً في إسهاماته اللاحقة، يقول جون هالبرين John Halperin في معرض حديثه عن نظرية الرواية عند لوكاش، في مقال له عن النّظرية الروائية الأوربية، معلقاً على كتابه (نظرية الرواية) إنّ: "أعظم إسهام مفرد قام به لوكاش في نظرية الرواية ، دراسته اللامعة قبل أن يُصبح ماركسيا" ⁷ ومن أدلّة ذلك أنّ التّاريخ الفعلي للنظرية الروائية في أوروبا والعالم ككل ينطلق من هذا الكتاب.

وهكذا فإنّ (نظرية الرواية) و(التاريخ والوعي الطبقي) لقياً احتفاء كبيراً حتّى من خصوم لوكاش ⁸ ، وللتّمثيل على رواجهما رغم تنديد صاحبهما

بهما سنتحدث في محطة آتية من هذه الورقة البحثية التي أفردناها لعرض الأطر العامّة لنظرية الرواية لدى الأعلام الذين ذكرناهم سابقاً، عن إسهامات لوسيان غولدمان -تلميذ لوكاش- الذي أسّس لنظريته في الرواية استناداً إلى بواكير إسهامات لوكاش (نظرية الرواية والتاريخ والوعي الطبقي) التي انطلقاً منها بدأت نظرية الرواية بالتشكّل ⁹ ، رغم ما ذكرناه من تخلي لوكاش عنهما .

في زمن لا يسمع فيه إلّا صوت دقّ طبول الحرب العالمية الأولى، ولا رائحة فيه إلّا للموت، صاغ لوكاش كتابه (نظرية الرواية) فانعكست تلك على هذا، والكتاب -إن لم نبالغ- يقوم أساساً على فكرة البحث عن السّعادة ، ولقد قاد البحث عن السّعادة، لوكاش إلى الحديث بلغة فلسفية روحها الأسمى وديدها التّطلّع بحزن ومرارة إلى قيم أصيلة غابت أوغيّبت، إلى زمن يُسمّيه لوكاش زمن الصفاء الأوّل . كان لوكاش "يسأل في كتابه عن زمن السّعادة البعيد، ويسأل زمناً حديثاً هجرته السّعادة" ¹⁰ ، مشيراً إلى أنّ إنسان زمن الصفاء الأوّل لم يبحث عن السّعادة لأنّها كانت عنواناً لحياته، ولأنّه عاشها بينما يسعى إنسان الزّمن الحديث، زمن الإثم الكامل باحثاً عن سعادة تتسلّل هاربة منه، يتحدّث لوكاش بعبارة أخرى عن اغتراب الفرد في المجتمع البرجوازي ¹¹ .

يلور لوكاش في نظريته عن الرواية فكرة مؤدّاها التّناظر الحاصل بين الرواية والملحمة ¹² بين بشر الأزمنة السّعيدة، وبشر الأزمنة المتدهورة، إنّها نظرية عن رواية الزّمن الحديث ، وملحمة الزّمن

القديم، استعمل فيها لوكاش مفاهيم محورية سترّد تباعا، ونذكر هنا (زمن الصفاء الأول) دلالة على زمن الملحمة، و(زمن الإثم الكامل) دلالة على زمن الرواية.

إنّ تطلّع لوكاش إلى زمن سبق، دفعه إلى ذمّ زمن الإثم الكامل، زمن الرأسمالية الذي تشظّت فيه الحقيقة، وسيطرت القيم المادية فاضمحلّت القيم الأصلية، أمام انتصار الأنانية والفردية والقبح الخالص. يُعبّر لوكاش عن مقتته للزمن الحديث (زمن الحروب)، ويعلن صراحة عن رحلة روحية هدفها البحث عن زمن بكر، عن عالم أليف يمنح القيم الأصلية، قيمتها الحقيقية، ويؤمّن للروح عفوية يُحقّقها بطل يعتبر بطولاته، بطولات للمجتمع في كنف رعاية إلهية، فلا ذاتية ولا أنانية ولا دنس.

يسعى لوكاش للوصول إلى زمن الطهر الكامل، الذي لا مكان له إلاّ في الملحمة حيث يستطيع الفرد أن يقول: "مباركة هي الأوقات، عندما تكون السماوات طريقا ترشد خطوطها إلى السبيل التي ينبغي إتباعها، وتضيء نجومها الممرات التي يمكن سلوكها..."¹³، وفي هذا إشارة إلى زمن الملاحم الذي ترعاه الآلهة.

ولأنّ لوكاش يعتبر الرواية "الشكل الأدبي الأكثر دلالة على المجتمع البرجوازي"¹⁴، فإنّه يؤكّد على وجود انفصال مطلق بين ماهية الروح وماهية البنى الاجتماعية في النظام الرأسمالي - زمن الإثم الكامل - يترتب عن ذلك انعدام التوافق بين الأخلاق الأصلية - أخلاق الروح -، والأخلاق الزائفة - أخلاق المجتمع المادي -، إذ تحضّر في الأولى العفوية والبراءة، وفي الثانية الغربة والانحطاط.

تُحدّث الملحمة عن زمن الطهر والصفاء، وعن إنسان لا يطرح الأسئلة، بل يسلم أمره للطبيعة (الآلهة)، في عالم ترعاه السماء وتبعد عنه شبح البحث عن الذات. إنّ الملحمة تتعامل مع فرد تغيب فرديته وتذوب في الجماعة، بينما تحدّث الرواية عن زمن الإثم الكامل، زمن الانقسامات والذاتية الجاحمة، في عالم تنخره الحرب، إنّ الرواية "تعبّر عن فرد هجره الله، بعد أن هجر القيم الأصلية"¹⁵، وعليه فإنّ المقاربة اللوكاشية ترمي إلى ربط الأجناس الأدبية بالأزمنة التاريخية، حيث يرى لوكاش المجتمع البرجوازي من خلال الرواية التي تصوّر فردا أتعبه البحث وأزقه الانقسام، ثمّ يرحل إلى زمن بعيد، ترسم فيه الملحمة إنسانها الذي ينعم بالدفع في كنف الآلهة.

إنّ الرواية تصبح في عرف لوكاش ومن منظوره، الشكل التعبيري "المطابق للجزئية والتشظي، وعواقب الاستلاب داخل المجتمع البرجوازي"¹⁶، وقد أشرنا إلى سبب ذلك عندما ذكرنا أنّ لوكاش صاغ نظريته عن الرواية - في طورها الأول - في فترة الحرب العالمية الأولى مع ما أفرزته من استلاب وتشظّ عاشه الفرد، الذي أحسّ البون الشاسع بين قيمه وقيم المجتمع الرأسمالي.

درس لوكاش الرواية "كنوع أدبي في علائقه الجدلية مع الماضي وحاضر المجتمع الرأسمالي الذي ظهرت فيه"¹⁷، مقابلا إياها بالملحمة من وجهة نظر تُعنى بمدى تشبّع الفرد بالقيم الأصلية التي تسعى النفس البشرية إلى تحقيقها، تلك القيم التي كانت متاحة في عالم الملحمة، أو كما يُسمّيه لوكاش عالم الطهر الكامل (طفولة الإنسانية). بينما فقد

الإنسان الحديث هذه القيم في عالم الرواية، عالم القبح والإثم الكامل، حيث يشعر الفرد بانفصال حاد بين قيمه، وقيم مجتمعه البرجوازي، وعليه فإنّ الرواية التي تحدّث عنها لوكاش، رواية تُثير الحاضر من خلال اللّجوء إلى الماضي، وكلّ هذا يتجلّى في التفاعل بين التاريخ والأنواع الأدبية¹⁸.

نعود إلى مسألة مقابلة لوكاش عالم الرواية بعالم الملحمة، لنقول إنّ البحث عن الفرق بين زمن الرواية، وزمن الملحمة يؤدّي إلى تلمّس فروق أخرى، فعلى مستوى اللّغة تُعبّر الرواية بالتّشريح، وتجنّح الملحمة إلى الشّعور، وأكيد أنّ اعتماد الملحمة على الشّعور يُضفي عليها جمالية تُزامل جمالية تعبيرها عن عالم روحي منسجم لا انقسامات فيه، يزيده الشّكل الشّعريّ شفافيّة، فهو لا يُحدّث عن واقع مرّ قاتم، ولا يبحث عن معان جديدة. لغة الملحمة لغة غنائية، أمّا لغة الرواية فتأثّبه بين عالم خارجي عنوانه الحروب، والفردية القاتلة وغياب الجانب الروحي، وعالم داخلي ممزّق، تُعْتَهُ في الإفصاح عن هواجسه، قلقه ناقصة، غيّب عنها زمن الإثم الكامل، آلهة تُغنيها عن مغامرة البحث عن اليقين¹⁹.

يمثّل بطل الملحمة الجماعة، وتذوب فردية في رحابها، ويمكن أن نقول إنّ عالم الملحمة يُعدّ بحقّ الشّكل الأدبي المعبّر عن صبا الإنسانيّة، إنّهُ شكل ينشُد المطلق، ويصوّر مصير الجماعة، ولا يعيش بطل الملحمة الاغتراب ولا الانقسام، بين عالميه الداخلي والخارجي، ينشُد هدفا لا يمنعه عنه شيء، ترعاه الآلهة فردا يسمح به المجموع، لأنّ مصيره مصير لهذا المجموع. كان لوكاش يسعى إلى البحث

عن توافق بين العالم الداخلي للفرد والعالم الخارجي " لقد سيطرت فكرة المجموع الكلّي على أعمال لوكاش"²⁰، وذلك عن طريق البحث عن توافق بين حياة المجتمع وقيم أفرادهِ، هذا الأمر دفع الإنسان الحديث إلى البحث عن ذلك بالعودة إلى مرحلة طفولة الإنسان الآمنة التي تمثّلها الملحمة، إذ يرى بطلها بطولاته بطولات للمجتمع.

أمّا في الرواية فإنّ البطل يعيش اغترابا مزدوجا، فهو من جهة يعيش متناقضات العالم الخارجي الذي أنتج رواية تُصدّر عن زمن كلّهِ حروب، ومادية قاتلة، وهو من جهة أخرى يعيش حيرة داخلية، يغدّيها البحث عن حقيقة لم يرها ولم يعيشها، حقيقة غابت أو غيّبت لأنّ الإله (الجانب الروحي) هجر الفرد (البطل)، الذي ألقى نفسه ضائعا منكسرا، بين متناقضات ظروفه الاجتماعية وشرطه التاريخي، ومتناقضات ذاتية تحركها الأنانية، في زمن الإثم الكامل، ويتخبّط بطل الرواية في الشك وهو يحاول العثور على السكينة (ذاته)، في ظروف عنوانها الحروب والغموض والضيق. يدفعنا هذا إلى القول إنّ بطل الرواية يُصبح " إشكاليا، والشفرة التي لا بدّ أن يعيش بها ليست مضمونة، وتتوقّف مسيرة الرواية على محولاته لاكتشاف مثل هذه الشفرة وتبنيها..."²¹، والمقصود بالشفرة هو ذلك التوافق بين قيم الذات وقيم المجتمع، وقد كان هذا معطى جاهزا في عالم الملحمة كما سلف الذكر، ويؤكد لوكاش حيرة البطل الروائي، عندما يقول إنّهُ يطغى على تعبير بطل الرواية " النبرات اليائسة بشأن التناقضات التي لا حلّ لها في المجتمع الذي نعيش فيه"²²، يقصد المجتمع البرجوازي.

يُحيل زمن الرواية على إنسان متدهور أضاع ذاته في بحثه عنها ، ووقف حائراً أمام عالم خارجي، لم يحقق له من رغبات الذات شيئاً ، وعليه فإنّ لوكاش ومن خلال نظريّة الرواية ، يقرأ الحداثة (الزمن) التي أنتجت الرواية، وجعلت من بطلها إشكاليا يغالب أنانيته، في ظلّ انسحاب الآلهة، وجسدت حرمان الإنسان الحديث، وحينه إلى زمن مضى، ولوعته على زمن حاضر (غائب)، وتوقه إلى زمن آت قد لا يصل، كلّ هذا أدّى به إلى البحث من خلال الرواية (ملحمة العصر الحديث) عن الملحمة (رواية الزمن الأول)²³.

إنّ لجوء لوكاش إلى الملحمة لم يكن من أجل جعلها مثلاً أعلى، ينبغي أن يقلّد أو أن يُحاكي آلياً، وإمّا يقصد إلى إبراز الشّروط، والظّروف التي أدّت إلى ظهور هذا الشّكل التعبيريّ، ثمّ إلى اختفائه، وظهور الرواية شكلاً تعبيرياً، يتأسّس على محاولة احتواء تناقضات العصر الرّاهن إنّ محاولة لوكاش تُعدّ بحقّ تفكيراً معمّقا حول العلاقة بين التشكّلات التاريخيّة، وظهور الأشكال التعبيريّة، والانتقال من شكل تعبيريّ إلى آخر²⁴.

وبعد الذي سبق سنحاول أن نذكر جملة من الملاحظات التي سجّلت حول جهود لوكاش في الشقّ الأوّل منها:

- يبالغ لوكاش في رفضه للعالم الحديث ، الذي أنتج الرواية في مقابل تمجيده للعالم القديم، ممثلاً في زمن الملاحم الإغريقيّة ، فالملحمة وإن كانت " تُعبّر عن تطابق الذات مع العالم والخارج حيث توجد الأجوبة قبل صوغ الأسئلة مع الدّاخل المستغني عن التّساؤل"²⁵، فهي تعبّر عن إشكالية عاشها بطل

الملحمة المنصاع كليّة لرغبات الآلهة، ويمكن أن نستنتج أنّ الزمن الحديث رغم ما يعيشه الفرد فيه من اغتراب، إلّا أنّ هذا الزمن (هذا الفرد) استطاع أن يفرض فرديّة، وتمكّنه من خلق معارفه، وحاجياته دون سند خارجي (الآلهة) ، هذا السند الذي لم يكن لإنسان (بطل) الملاحم غيره. إنّ إنسان العالم الحديث سعى ويسعى دائماً إلى فهم الكون وطرح الأسئلة والتّمرد على البديهيّات، بينما يخضع الإنسان الإغريقي لبعض الأجوبة التي منحت إياها الطبيعة (الآلهة).

وعليه يمكننا أن نستخلص الاختلاف القائم بين الفعل البطولي، في الملحمة وصنوه في الرواية إنّ الفعل البطوليّ في الرواية، يرسم بطلا يصارع هوة شاسعة بين عالمه الدّاخلي، والعالم الخارجيّ من أجل تحقيق إنجازات لم يحلم بها بطل الملحمة الذي تضفي عوامل خارجية، صفة البطولة على فعله، بينما يمارس هو الانصياع، والقناعة والتّسليم بكلّ ما تقرّره الآلهة ، في صمت يرفضه بطل الرواية²⁶.

- ينتصر لوكاش لحظة حديثه عن مجتمع الرواية، ومجتمع الملحمة إلى هذا الأخير، ولكن التّقد يتسلّل إلى ما انتصر له لوكاش من خلال ما يمكن أن يسمى (الثّبات المطلق) و(الاختزال) وتتجلّى صفة الثّبات المطلق في عالم " يتوالد فيه الآباء العارفون والأبناء الصّامتون "²⁷، ومُثّل الآباء العارفون الآلهة، أمّا الأبناء الصّامتون فيمثّلون البطل (الأبطال)، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تحوّل الأمر إلى بداهة، حيث يسود الصّمت في ظلّ غياب الأسئلة، وامتنال دائم وأبدّي، وعن صفة الثّبات المطلق تنتج صفة الاختزال، بحيث يُختزل مجتمع كامل في وجه أساس،

لا يختلف أبداً، لأنه مجتمع لا يعترف بفردية الفرد، المعبر دوماً ووجوباً عن روح الجماعة، ونستفسر هنا عن الصورة التي يحضر فيها الإبداع في مثل هذا المجتمع، أين يتحقق الإنسان (الابن الأخرس) الذي ينصاع وراء كلية ممتدة وثبات وأبوة لا تنتهي؟ .

أما مجتمع الرواية (المجتمع الحديث) ، فيرفض كل قيم مجتمع الملحمة ، لأن الإنسان الحديث أراد تحقيق ذاتيته من خلال كسر روتين عاشه مجتمع الملحمة، فحث الخطى سلاحه التحرر والتنوع والتحول السريع. إن البطل الروائي مغامر، متمرد لا يقنع بما وصل إليه، ولا ينتظر هبة مادية أو معرفية من أحد، إنه يختلف تماماً عن بطل ملحمة يقنع بالذي أبدته الآلهة في صمت²⁸.

الزمن في الملحمة ثابت، والثبات موت، والتناقض والتنوع حياة، تدحض الرتبة. إن زمن الملحمة لا جديد فيه، والمنجز قناعة مقدسة، تعلن قداساتها الآلهة، ويسلم بذلك بطلها دون نقاش ، بينما الزمن في الرواية يتجاوز كونه مسألة تقنية فقط، إنه قضية أخلاقية لها وزنها، إن الملحمة التي تُعتبر جسراً يوصل إلى عالم الآلهة تختلف تماماً عن الرواية التي تنسج عوالم بشرية متناقضة ومتداخلة، جعلت الرواية تتعامل مع أزمنة كثيرة، فنجدتها تغترف من التاريخي واليومي، ومن زمن الأحلام والكوابيس، ومن الزمن النفسي ، وهذا ما يُفسر الأهمية التي يحوزها الزمن في الرواية إبداعاً ونقداً²⁹.

وإلى هذا الحد نكون قد حاولنا التطرق إلى أهم ما عرض له لوكاش في نظريته عن الرواية في طورها الأول، لأن لوكاش -كما ذكرنا سابقاً-

طور أبحاثه بعد انقطاع دام قرابة عشر سنوات وهي الفترة الفاصلة بين صدور كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) 1923، وكتابته (تقرير حول الرواية) 1934، " ومما لا ريب فيه أن حياته وأعماله كانتا على ارتباط وثيق العرى"³⁰، على أننا ننفر من محاولة تقسيم حياة لوكاش سياسياً فالتداخل بين مراحل حياته، يكاد يكون أكيدا لأن السياسة -في اعتقادنا- مهما أثرت في نتاج المبدع، فإنها تظل أمراً مرحلياً، لا يجبر من مرّ به أن يقطع الصلة نهائياً بينه وبين أفكاره ومواقفه حول الإبداع الفلسفي والأدبي، مع ما بينهما من علائق ووشائج ، قد تقل ولكنها لا تنعدم.

حاول لوكاش في طوره الثاني " كتابة نظرية ماركسية للرواية"³¹، ولكن ذلك لم يبعده تماماً عن مقولات الفيلسوف الألماني هيغل Hegel، ولم يحقق قطيعة بينه وأفكاره السابقة المتمثلة أساساً في ضرورة وجود علاقة ما بين الملحمة والرواية، وترسم ملامح هذه العلاقة في كون الرواية امتداداً للملحمة في زمن آخر. أي أن الرواية تُصبح ملحمة برجوازية، تحاول تمثيل العالم بصورة تُقارب تمثيل الجنس الذي جاءت منه للعالم، وتعبير آخر تُمثل الرواية ملحمة ستظهر في زمن آت، بعد أن هدم المجتمع البرجوازي العلاقة بين الفرد ومجتمعه، وهكذا فإن لوكاش يستأنس بفكرة أن البطل الروائي سيعيش انحلال المجتمع البرجوازي، بكل ما يمثله من اغتراب، وسيشهد انبثاق رواية جديدة تُمثل ملحمة برجوازية لا تنهار إلا لتولد ملحمة اشتراكية في زمن قادم، يضمحل ويتلاشى فيه المجتمع البرجوازي³².

إنّ هناك تطابقاً بين التعريف الذي يقدمه هيجل للرواية والتعريف الذي اجترحه لوكاش حيث تغدو الرواية ملحمة برجوازية، اكتسبت أهميتها عندما صيَّرت الشكل الأساس للتعبير عن المجتمع البرجوازي، يقول عبد الملك مرتاض: "إنّ تعريف هيجل الذي يقدم الرواية على أنّها ملحمة برجوازية حديثة يُجاريه فيه الناقد المجري جورج لوكاش (كذا)..."³³، على أنّ الملاحظة العامة التي ينبغي أن ندرجها هنا هي أنّ لوكاش "ظلّ في كتاباته حول نظرية الأدب ذلك المفكر الذي استلهم ماركس وهيجل"³⁴، حيث استلهم هيجل في طوره الأول، ولم يمارس أيّ قطيعة مع أفكار هذا الفيلسوف، وهو يستلهم كارل ماركس Karl Marx في الطور الثاني من إسهاماته.

تأسّس نظرية لوكاش حول الرواية في طوره الثاني "على إحالة متبادلة بين المجتمع البرجوازي والجنس الرّوائي"³⁵، حيث سعى لوكاش إلى توضيح فكرة أنّ التطوّرات التي حدثت في المجتمع البرجوازي، هي التي منحت الرواية خصوصيّة مكنتها من التميّز جنساً أدبياً نثرياً يُعبّر عن تناقضات ذلك المجتمع، حتّى أنّها أضحت الشكل النموذجي للتعبير عنه، وعن ما يضطرب فيه من أفكار ترسم في رأي لوكاش في الكلية التي يعني بها أنّ الرواية ينبغي لها أن تتلافى التسطح، في تعاملها مع الظواهر المجتمعيّة، أي أنّ الرّوائي مطالب بضرورة الغوص والبحث في العلاقات بين التاريخ والقوى الاجتماعية التي تُزامله وتسير به إلى الخلاص.

وحديث لوكاش عن نظرية الرواية هو حديث عن مفهومه للواقعيّة، فالجنس الرّوائي من حيث

هو شكل تعبيريّ واقعي، ينبغي له أن ينتصر للتاريخ في تقدّمه، وللقوى الاجتماعية التي تساهم في هذا التقدّم، والمعادلة التي يروم لوكاش بلوغها من وراء كلّ هذا، هي ضرورة إيجاد التوافق بين الواقعيّة التي ترى الخلاص في المجتمع الذي سيعقب المجتمع البرجوازي، والجنس الرّوائي مطالب بصياغة التاريخ من خلال صياغة مصائر البشر، الذين يعكسون هذا التاريخ ويسيرون به من طور إلى طور آخر. إنّ على الرّوائي أن يتجاوز الظواهر الطافية على السطح، ولن يتأتّى له ذلك إلّا إذا دقّق البحث في الحركة المجتمعيّة، العميقة عن طريق "الإمساك بعملية الصراع الطبقي واستشراف الآفاق التي يذهب إليها"³⁶، إنّ عليه استشراف آفاق مجتمع سيعقب المجتمع البرجوازي.

يهتمّ لوكاش بالتاريخ من باب أنّ الرواية تساهم في صنّعه، كما ساهم هو في تشكّلها وتطوّرها، ويصبّ هذا الأمر في فكرة المعرفة الروائيّة³⁷، التي لا تنال مصداقيتها إلّا إذا تفاعلت مع التاريخ ومع ما يضطرب خلاله من صراع مجتمعيّ، يُتيح للرّوائي استشراف زمن قادم، يتنبأ لوكاش فيه "بأنّ الرواية ستحقق طفرة ملحمة جديدة على غرار الطفرة الملحميّة القديمة... حيث ستُعبرّ الرواية عن طموح مجموع الفئات الاجتماعية"³⁸. ويؤسّس كلّ هذا لما يسمّيه لوكاش الأدب الملحمي الكبير الذي يتجاوز انهماجية المجتمع البرجوازي، وتناقضاته، إلى زمن تتبّى فيه الطبقات الاجتماعية قيمها المقبولة، وإن كان تحقّقها الكلي يشي بنسبيّة ما.

يحفل لوكاش كثيراً بالبطل الملحمي، لأنّ قيمه قيم مجتمع لم يهجره الإله، ويحفل أيضاً بالبطل

الرّوائي في العالم الحديث (عالم الإثم الكامل)، ما لم يكن انهماكيا، ولأجل ذلك " لم يكن غريبا أن لا يرحّب لوكاش بالفرد المنعزل، وبالعالم الدّاخليّ للإنسان، وبمصائر الأبطال المهزومين"³⁹. إنّ لوكاش يُثني دائما على بطل يفهم التاريخ، ويُحرر معه موقّفا بين عالمه الدّاخليّ والعالم الخارجي حتّى وإن كان هذا الأخير مشحنا بالتناقضات، فذلك وحده الكفيل بالوصول به إلى عالم يُشاكل وإن نسبيا زمن طفولة الإنسانيّة (عالم الملحمة).

وإذا نظرنا إلى إسهامات لوكاش عامّة، فإنّنا نُشير إلى أنّ المدخل إلى نقد لوكاش يكمن في استحالة وجود مجتمع بلا طبقات، مجتمع يتأسّس الفرد فيه ناطقا باسم الجماعة، ومحقّقا لأمانيتها على شاكلة ما كان سائدا في الملحمة، ولعلّ هذا ما دفع لوكاش في طوره الأوّل إلى جعل الرّواية محاولة فاشلة لتمثّل الملحمة، ثمّ عودته في طوره الثّاني مبشّرا بملحمة جديدة ستظهر على أنقاض المجتمع البرجوازي، المضمحل فاسحا المجال لحلم الواقعيّة الاشتراكية⁴⁰.

ونختم حديثنا عن لوكاش بالإشارة إلى أنّه يستخرج من خلال تحليلاته، ثلاثة نماذج يعدها أساسيّة للرّواية، ويضيف إليها نموذجا رابعا في طور التّكوّن. يستشعر لوكاش حمل هذا النموذج الرابع لآفاق التّغيير، وتمثّل روايات تولستوي Tolstoy، وبشكل أكبر روايات دوستوفسكي Dostoevski، وتجلّى النماذج الأخرى في: (رواية المثالية المجرّدة)، وهي رواية يحمل بطلها قيما أصيلة، لا يستطيع تحقيقها في الواقع، رغم محاولته ذلك، فيضطرّ إمّا إلى التّسليم بالفشل، والتّنازل عن

قيمه، وإمّا إلى ممارسة العزلة والانكفاء، ومثّلها (دون كيشوت) لـ: سرفانتيس، والنموذج الثّاني هو (رواية رومانسيّة الأوهام، أو رواية رومانسية انجلاء الوهم) يكتفي بطل هذا النموذج بخلق حياة داخليّة تغنيه عن عالم مثقل بالتناقضات، وتعكس ضعفا واضحا تجاه الواقع الخارجي، ويمثّل لوكاش لهذا النموذج برواية: (الترية العاطفية) لفلوبير Flaubert. بينما يتراوح النموذج الثّالث (الرّواية التّعليمية، أو رواية التّربية) بين هذا وذاك، أي أنّها محاولة للتركيب بين النموذج الأوّل والثّاني، حيث يحاول بطل رواية التّربية التّوفيق بين قيمه الأصيلة وتناقضات الواقع، إنّّه حلّ وسط، وتمثّل هذا النموذج رواية (ويلهيلم ميستر) لغوته Goethe⁴¹، "وهذا ليس من قبيل الصدفة طبعاً، فالحلّ الوسط يوجد مجسّدا في هذه الرّواية بصورة واعية"⁴²، وجليّة.

على أنّ كلّ الذي قيل في نقد لوكاش لا يُنقص من قيمته، وقيمة إسهاماته، فمعه انطلق التّأسيس لنظرية الرّواية، حيث لا يصحّ الحديث عن هذه النظرية إلّا إذا عُرج على آرائه، كما أنّه صاحب ثقافة واسعة، وغنيّة يتحاور في فضائها الفلسفي، والتّاريخي، والاجتماعي... .

وهكذا نكون قد أنهيّا محاولة الإحاطة بإسهام لوكاش في نظرية الرّواية، مخصّصين الحطة الآتية لعرض الأطر العامّة لتلك النظرية عند لوسيان غولدمان.

__لوسيان غولدمان.. نظرية في علم اجتماع الرّواية:

خلصنا سابقا إلى أنّ لوكاش صاغ نظريته في الرواية، استنادا إلى نسق فلسفي يُقيم علاقات بين الشكل الفني وانفتاح الروح على المطلق، وينشد تحقيق طمأنينة لهذه الروح، وأشرنا كذلك إلى أنّ لوكاش ظلّ في كتاباته ذلك المفكر الذي استلهم هيجل Hegel وماركس Marx ثمّ ذكرنا أنّ لوكاش بعد أن أصبح ماركسيا تنكّر لإسهاماته الأولى مُثّلة في كتابيه (نظرية الرواية) و(التاريخ والوعي الطبقي)، وقد جاء لوسيان غولدمان Lucien Goldmann إلى إسهامات لوكاش التي تخلّى عنها، فأسس انطلاقا منها جهوده في نظرية الرواية، يقول مؤكدا اعتماداه على كتاب (نظرية الرواية) للوكاش: "لقد قادتنا دراسة نظرية الرواية إلى صياغة عدّة فرضيات سوسيولوجية، تبدو لنا هامة بوجه خاص وانطلاقا منها تطوّرت أبحاثنا اللاحقة"⁴³. وتقوم هذه الفرضيات على إقامة علاقات بين العمل الإبداعيّ-الروائي على وجه الخصوص - والبنية الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي. إنّ اتخاذ غولدمان، لوكاش أستاذا له لا يخلع عليه صفة التبعية المطلقة، أو الاتفاق التام مع رؤية لوكاش، كما لا يفهم من ذلك أنّ غولدمان يمثل -آليا- استمرارا لأفكار أستاذه.

سعى لوسيان غولدمان إلى اجترار نظرية خاصّة به تقوم على التعامل مع العمل الأدبي في علاقاته الداخليّة -بنيته المحايثة- مع إدراج البنية الدلالية لهذا العمل، في بنية اجتماعية شاملة وواسعة. إنّ جهد غولدمان يؤسّس لتصور خاص لعلم اجتماع الرواية، يُركّز على ارتباط بنية الرواية، بالبنية الاجتماعية التي يؤطّرهما الاقتصاد

الرأسمالي⁴⁴، وجليّ أنّ ربط الشكل الروائي بالمجتمع الرأسمالي دليل على تأثر غولدمان بلوكاش، وسنحاول أن نقدّم بعض الإشارات المتصلة بالعلاقة بين نظرية الرواية وعلم الاجتماع.

بدأت بوادر نظرية الرواية بالظهور والتشكّل، عندما بدأ علم الاجتماع اهتمامه بالرواية وبعبارة أخرى نقول: إنّ "نظرية الرواية لم تتبلور وتبرز إلى الوجود إلا بفضل هذا المنهج"⁴⁵ وبالطبع نقصد علم الاجتماع الذي لم تكن له صورة واحدة في تعامله مع الرواية فقد اتخذ أشكالا متعدّدة، أفرزها تطوّره وتحديداه لمقولاته وإجراءاته، ولأجل ذلك يمكن أن نتحدّث عن ثلاثة أشكال اتخذها علم الاجتماع في تعامله مع الرواية.

يتجلّى الشكل الأوّل، في النّقد الجدليّ الذي يهتمّ تحديدا بالوصول إلى موقف المبدع من الصراع الاجتماعي، من خلال البحث عن المدلول الاجتماعي للعمل الروائي. ورغم التعديلات التي أعملها جورج بليخانوف G . Plekhanov، الذي سعى إلى التمييز بين الكتابة الإبداعية، والتعبير الإيديولوجي المباشر إلّا أنّ تعديلاته بقيت حبيسة جهوده النظرية، حيث كان مرتبطا في ممارساته بفكرة أسبقية التمثيل الاجتماعي، أكثر من ارتباطه بالجانب الجمالي، الذي يحوز أهمية لا يمكن أن تنكر، في بناء الشكل الروائي.

أمّا الشكل الثاني فتمثّله إسهامات لوكاش، وقد تطرّقنا إلى جوانب منها في بداية هذا الفصل وإسهامات لوسيان غولدمان -تلميذ لوكاش- في ما يسمّى (البنوية التكوينية)، وسنتكلّم عن إسهاماته بعد قليل. وأمّا الشكل الثالث فيتمثّل

تطورا للآراء السابقة، ومن رواد هذا الشكل الناقد بيير زيمما Pierre Zima ، ويصطلح على هذا الإسهام سوسيولوجيا النص الروائي، وتؤسس لهذا الإسهام آراء ميخائيل باختين M Bakhtin ، بصورة واضحة سبقت زيمما إسهامات زيمما، وتهتم سوسيولوجيا النص الروائي أكثر بالعلاقات الداخلية في النص مستثمرة نتائج الدراسات اللسانية الحديثة، وأخذة على التوجه الغولدماني " الحضور المكثف للعناصر الخارجية"⁴⁶، التي تمثل بنية اجتماعية، واقتصادية واسعة تندرج ضمنها البنية الدلالية للعمل الأدبي ، المعبر ليس فقط عن المبدع، وإنما عن طبقة اجتماعية كاملة⁴⁷.

إن غولدمان - وكما سبق أن ذكرنا - ينطلق من حاضر مظلم رسمه لوكاش، عندما قال إن إنسان العالم الحديث يعيش الضياع والاغتراب، في عالم هجره الإله ، فلا هو حقق قيمه الأصيلة في عالم الإثم الكامل، ولا هو استطاع خلق عالم يلقفه النقاء ، عالم يشاكل زمن الصفاء الأول. ويحاول غولدمان إعادة صياغة أفكار لوكاش - صياغة غير آلية -، فهو (أي غولدمان) " يرى في الحاضر المتدهور لحظة عابرة ويشرّع أبواب نظريته على مستقبل محتمل"⁴⁸، وتأسيسا على هذا، يعتبر غولدمان مقولة الفرد الإشكالي مقولة تحتاج إلى إعادة الصياغة ، دون أن يرفضها رفضا قطعيا، ودون أن يقبلها قبولا مطلقا، فهو يرنو إليها متحوّطا، ومحاولا إعادة صياغتها وفق ما يتناسب مع أفكاره عن الفرد والفئات الاجتماعية.

يصف غولدمان بحث الفرد/البطل الإشكالي عن القيم الأصيلة في المجتمع البرجوازي، بأنه بحث متدهور، فالبطل "لا يعي القيم التي يبحث عنها، داخل مجتمع يجهل القيم ويكاد أن ينسى ذكرها تقريبا"⁴⁹، ويُسقط غولدمان صفة التدهور على البطل والعالم، فالأول متدهور لأنه يسعى إلى إيجاد قيم، بطرق تناقض تلك القيم، والثاني متدهور لأنه لا يتوقّر على إمكانية وجود تلك القيم فيه، لأنه عالم مسكون بالتشظي، وينتج عن هذا أن تظلّ القيم مقصية (نسبيا) ، بسبب غياب فضاء تتحقّق فيه. إن الرواية ومن هذا المنظور، تعبّر عن قيم غائبة ولا وجود لها إلاّ في تصوّر المبدع، إنّها حقّا قيم لا توجد "إلاّ بشكل مجرد ومفهومي في وعي الروائي"⁵⁰، الذي يُعبّر عن طبقة اجتماعية، وبالطبع لا يمكن وسم هذا التعبير بالآلية.

هناك ارتباط وثيق - في عُرف غولدمان - بين الرواية والمجتمع البرجوازي، إذ بقدر ما تعبّر الرواية عن هذا المجتمع، يترك هذا الأخير آثاره على تحولات الشكل الروائي. وعليه فإنّ هذا الأخير ينقل - جماليا - الحياة اليومية لمجتمع يحكمه السوق ، إلى المستوى الأدبي، وعندما نقول (المستوى الأدبي)، فإنّ ذلك يخلع عن ذلك النقل صفة الآلية . وجليّ أنّ العلاقات اليومية في المجتمع البرجوازي، تحكمها النقود، والسلع، وقيم السوق، دون تحديد العلاقة بين قيم السوق وعلاقات البشر ببعضهم البعض، حيث تُمنح الأهمية " لقيم التبادل الكمي، أي القيم التي ترمي بالطبيعة الإنسانية جانبا، وبداهة فإنّ قيم

الاستعمال تستمر في الوجود"⁵¹، وقيم الاستعمال هنا ، تعادل القيم الأصلية في عُرف لوكاش.

إن إقامة علاقة وطيدة بين الشكل الروائي، والبنية الاجتماعية-الاقتصادية جعل غولدمان يؤكّد " أن هناك تماثلا دقيقا أو تطابقا بين البنيتين، لدرجة أن الرواية يمكن قراءتها على أنها انتقال بالحياة اليومية في المجتمع الفردي، الذي خلقه إنتاج السوق، إلى المستوى الأدبي"⁵². لقد أفرز ذلك المجتمع، منظومة علاقات يحكمها السوق، فأضحت العلاقات ، علاقات سلع بسلع بدل أفراد بأفراد، إن هذا المنطق منطوق أشياء أدى لاحقا إلى انحلال الشخصية الروائية وضمحلالات الشكل الروائي⁵³. يبرز هذا التحوّل الذي عاشه الشكل الروائي خاصة بما يسمّيه غولدمان بمرحلتي كافكا Kafka وآلان روب-غرييه A . Robbe Grillet⁵⁴.

يُقيم غولدمان أهمية قصوى، للأديب المبدع الذي ينقل علاقات متشعبة (تحكمها الأشياء) من الحياة اليومية، إلى البنية الروائية (المستوى الأدبي)، وهذا النقل لا يُعبّر فقط عن ذات المبدع لأنّ غولدمان يربط بين ذات المبدع والذات الاجتماعية. الأمر الذي يُعيّن العلاقة بين الشكل الروائي والذات الاجتماعية محورا أساسا، تشغل عليه بحوث غولدمان، المهتم بالتناظر بين بنية الاقتصاد الرأسمالي ، والبنية الروائية، فتاريخ المجتمع البرجوازي الذي تحكمه قيم السلعة (الأشياء)، أو ما يسمّيه غولدمان (البنية التشبيعية) يتجانس مع تطوّر البنى الروائية، حيث يحدّد - وقد أشرنا إلى بعض هذا أعلاه- المرحلة التي ظهرت فيها أعمال

كافكا Kafka . F مرحلة لبداية انحلال الشخصية الروائية، بسبب طغيان قيم السوق، وهي مرحلة تلتها لاحقا كتابة روائية جديدة ، قِلَقَةُ اللّغة، تبحث عن تحديد ما، يتوافق مع السيطرة المطلقة لقيم الأشياء.

يستلهم غولدمان مفاهيمه من الماركسية، ومن تطوّر الدرس اللساني، ويؤسّس انطلاقا من هذا ما يُسمّيه البنيوية التكوينية Structuralisme Génétique " وهي منهجية تحاول البحث عن العلاقات الرابطة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي-الاقتصادي"⁵⁵، ويبين غولدمان أنّ مبدع العمل الفني مجموعة اجتماعية لا أفراد مبدعون، ويبرز ذلك بأطروحات ثلاث ، يرى في الأولى منها أنّ الارتباط بين الحياة الاجتماعية، والإبداع الأدبي يحيل على البنى العقلية العميقة ويؤكد في الثانية التّطابق بين وعي الفئة الاجتماعية، والعمل الأدبي، أمّا الأطروحة الثالثة فيقرّر من خلالها، شدّة القرب بين البنى العقلية، والبنى العضلية والعصبية، التي تتحكّم في حركات الإنسان.

وتنهض آراء غولدمان على جملة مفاهيم أهمّها، رؤية العالم La Vision du monde، ويعرّفها غولدمان في مقدّمة كتابه (الإله الخفي) قائلا: " إنّ الرّؤية الكونية هي بالضبط تلك المجموعة من التّطلّعات والأحاسيس والأفكار التي تجمع أفراد فئة ما، وغالبا ما تجمع طبقة اجتماعية..."⁵⁶، أي أنّ الإبداع الأدبي لا وجود له بمعزل عن جماعات اجتماعية، لكلّ منها تصوّر يمكنها من رؤية العالم في تطوّره وتغيّره.

في اعتقاد غولدمان، لا يمكن أن نقوم بمحاولة قراءة العمل الأدبي بالاكْتفاء بالعمل وحده، ولا بالتركيز فقط على البنية الاجتماعية، ولأجل ذلك يقترح غولدمان أن يُقرأ العمل الأدبي في مرحلة أولى انطلاقاً من (الفهم) *La Compréhension*، والفهم عمليّة مهمّتها "توضيح البنية الدلالية البسيطة نسبياً والمحايثة للأثر الأدبي"⁵⁷، أي أنّ الفهم يشكّل عمليّة فكريّة، الهدف من ورائها الاهتمام بالبناء الدلالي، الصادر عن النص المدرّوس، دون إقحام أية عناصر خارجية، وتعطي هذه العملية الدّارس إمكانية استخراج بنية جزئية ينبغي لها أن تُدرج في بنية شاملة وواسعة، لا تكتمل قراءة العمل دونها.

يطلق غولدمان على المرحلة الثانية، في قراءة العمل الأدبي، مصطلح الشّرح أو التفسير *L'explication*، وينتج عن هذه العملية إقامة العلاقة بين الأثر الأدبي والواقع الخارجي⁵⁸، وتمثّل هذه العملية، المستوى الذي يحدث فيه إدراج البنية الجزئية للأثر ضمن البنية الاجتماعية-الاقتصادية الشّاملة. والحقّ أنّ الفهم والتفسير يمثلان عمليّة واحدة، تشتغل على الأثر الأدبي في مستويين، يتّصل الأول بالأثر، والثاني بالبنى المحيطة به.

ومن المصطلحات التي يُعملها غولدمان، مصطلح البنية الدّالة *La Structure Significative* ويعارض بها "كلمة البنية التي توحى بالسكون"⁵⁹، ويمكن أن تُلخّص الرّكائز

التي أسّس عليها لوسيان غولدمان نظريّته في الرواية على التّحوّلات⁶⁰:

- ليس المبدع إلاّ مُبرِزاً، أو موضّحاً لطموحات الجماعة، لأنّه أكثر المنتمين لهذه الجماعة - لا نقصد الانتماء البيولوجي بالضرورة، بل نقصد انتماء ضمناً بالأفكار والرؤى -، قدرة على بلورة تلك الرؤية، نقصد رؤية العالم.

- الدّور الأساس الذي يقوم به الفرد، هو الصّيغة الجمالية لفكر منبثق عن الجماعة.

- يُتيح التّناظر بين بنية العمل الأدبي، والبنية الاجتماعية-الاقتصادية، استقلالاً نسبياً للبناء الجمالي للعمل.

- يربط غولدمان إذاً بين الظواهر الاجتماعية والأدب، بل إنّه يعلّم الأدب ظاهرة اجتماعية تُقرأ وفق آليات من علم الاجتماع، الذي يحفل كثيراً بالاستفادة من علوم أخرى، مثل علم الاقتصاد والسياسة، بالإضافة إلى علم النفس...

نأتي الآن إلى أهمّ ما يمكن أن يلاحظ على إسهامات غولدمان، فنذكر أنّ القسم الأكبر من جهوده، خُصّص لبحث العلاقات بين البنية الاجتماعية والبنية الرّوائية، وأنّ كلامه عن المرحلة الأولى في قراءة الأثر الأدبي، أو ما يسمّيه مرحلة الفهم، لم يُضبط نهائياً، وبعبارة أخرى يقول حميد الحميداني: إنّ غولدمان لم ينجح "في اقتراح الوسائل والأدوات العمليّة، التي تمكّن من القيام بهذا التحليل"⁶¹، ولأجل ذلك فإنّ اقتراح غولدمان حول تحليل الأعمال الرّوائية، من الدّاخل ظلّ يُراوح المستوى النظري، دون وسائل توازي هذا المستوى،

لثَسَهْل الوصول إلى المستوى التّطبيقي. ونذكر بعض الملاحظات الأخرى بشكل مختصر:

– إنّ الاهتمام بالصلة بين المبدع والجماعة، وارتباط البنية الرّوائية ببنية الاقتصاد، يجعل من الإبداع الأدبي مرتبطاً وجوباً بما هو خارج عنه بالإضافة إلى أنّ التّركيز على ذلك الارتباط عند غولدمان، يحدث دون ذكر " للرصيد الذي انبثقت من خضمّه الرّواية"⁶². وفي هذا إقصاء للتقنية الأدبية وتاريخ ارتباط الرّواية بالأجناس الأدبيّة الأخرى.

– إنّ اعتبار غولدمان، الأدب شكلاً نوعياً من الوعي الاجتماعي، دون تقديم ملاحظات عن المستوى المادّي لهذا الوعي، ونقص هذا كون الأدب ممارسة لغويّة، يجعل أسئلة من قبيل: هل تؤثر البنية الاقتصادية، في البنية اللّغويّة للعمل الأدبي؟ دون إجابة.

ورغم وجود بعض الاقتراحات الغولدمانية، التي سهّلت تسلّل النّقد إليها – والتي ذكرنا بعضها – فإنّ مرونة منهجيّته، وابتعادها عن آلية علم الاجتماع عند بعض رّواده، وابتعادها أيضاً عن انغلاق البنيوية الصورية، ساق إليه الشاء حتّى ممن هم في عداد خصومه، يقول رولان بارث Roland Barthes عن منهج غولدمان إنّّه: " من أكثر المناهج مرونة، وأكثرها مهارة مما يمكن أن تخيّل صادراً عن التاريخ الاجتماعي والسياسي"⁶³، وهذه شهادة قيمتها من قيمة صاحبها في حقل النّقد الأدبي.

ولا نريد أن ننهي الحديث عن غولدمان دون أن نشير إلى أنّ ارتباط إسهاماته، بنمط الإنتاج الرّأسمالي الأوربي تحديداً، يؤدّي إلى صعوبة – إن لم

نقل استحالة – تطبيق تلك الإسهامات على نمط، أو أنماط أخرى، تكوّن فيها شكل روائي مغاير، ويلاحظ أيضاً أنّ الشّكل الرّوائي المرتبط بالنمط الرّأسمالي لا يمكن أن يكون النمط الوحيد، الذي تستدعي خصوصيّاته فرداً إشكالياً لأنّ المقولات التي تحدّد صفات هذا الفرد (التّمرّد، العجز، الاغتراب)، تُثيخ وجوده حتّى قبل وجود نمط الإنتاج الرّأسمالي، ويُفضي جعل غولدمان البنية الاقتصادية، محرّكاً محوريّاً للبنى الأخرى إلى التّساؤل عن إمكانية ظهور الشّكل الرّوائي في مجتمعات لا تتحقّق فيها صيغة التّناظر الغولدمانية⁶⁴.

– ميخائيل باختين.. الرّواية وتعدّد الأصوات:

يَصُدّر ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin عن خلفية مزدوجة، يُمثّل قطبها الأوّل ما يُعرف اليوم بالتداوليّة La Pragmatique، ولا يرفض باختين من خلال هذا القطب الألسنيّة، ويتبنّى في فهمه للإبداع الأدبيّ المعطيات التاريخيّة والاجتماعيّة. بينما يُشكّل القطب الثّاني خلفية سيميائية، تتعامل مع النصّ عن طريق تشريح علائقه الدّاخلية والخارجيّة، مُمارسة ذلك في أفق التّحليل السوسولوجي لأشكال التّعبير الإيديولوجي⁶⁵.

انطلاقاً من كتاب باختين (قضايا شعريّة دستوفسكي)، يتجلّى بوضوح منهجه أو نظريّته في الرّواية، هذه التّظريّة التي تشكّل صراحة، قطعة مع ما سبقها من جهود في التّنظير للكتابة الرّوائية. إنّها نظريّة تتأسّس على فصل تام بين الكلمة القاموسية، التي ينهض معناها في سياقها الخاص بها وحدها، والتي تحقّق تعبيريّتها المباشرة دون مدّ

العلائق مع كلمات أخرى، تعتبرها كلمات محايدة، تمثّل إمكانية كلامية فقط، وبين الكلمة الحيّة، الكلمة الرّوائية - الكلمة التي ينتصر لها باختين-، التي لا يتحقّق وجودها إلّا بوجود كلمات الآخرين فيها، من خلال صراع يُجسّد القبول، والرفض، والتّقاطع، وانطلاقاً من هذا فإنّ نظريّة باختين، نظريّة في الكلمة الحيّة التي توجد دائماً " في علاقات التّأثّر والتّأثير، كما لو كانت حياة الكلمة، جملة العلاقات الاجتماعية التي تعبّرها"⁶⁶، وهذا الطّرح جديد لم يكن له حضور قبل باختين.

تمثّل الكلمة التي تتقاطع فيها جملة العلاقات الاجتماعية، تجسيدا حيّاً لصراع لهجات كثيرة، ومتعدّدة ومتناقضة، لأنّ كلمة الفرد - كما أشرنا سابقاً- يحكمها ثلوث القبول والرفض، والتّقاطع، مع كلمات الآخرين، أي أنّها تعيش " خارج ذاتها، أي في حياة يومية تؤكّدها مادّة متميّزة تؤمّن حوار البشر وتعارفهم"⁶⁷، استناداً إلى هذا تعيش الكلمة في صميم الحياة الاجتماعية، ولا حياة لها خارج العلاقات الاجتماعية، والكلمة المعبّرة عن تلك العلاقات، تحمل أفكاراً تتقاطع حيناً، ويقبل بعضها بعضاً حيناً آخر، وتحمل في أحيان أخرى رفضاً لكلمات أخرى و" تستدعي الكلمة في هذا التّعيين الإيديولوجيا، وتقدّم ذاتها كحامل إيديولوجي، وهو ما يجعلها (حلبة مصغّرة) تتقاطع فيها اللهجات الاجتماعية وتتصارع أيضاً"⁶⁸، فتقيم بذلك إحالة بينها وبين التّاريخ وتطوّر المجتمع، وهي لا توجد أبداً بمعزل عن المتحدّثين بها. يؤكّد باختين لحظة حديثه عن الكلمة الحيّة التي تمثّل ظاهرة إيديولوجية، أو عيّنة إيديولوجية

Idéologème (إيديولوجيم)، الارتباط الوثيق بين الكلمة والعلاقات الاجتماعية، التي تتغيّر وتبدّل قابليّة الكلمة لأن تموت بفعل ما يطرأ عليها من تغيّر وتبدّل، ويصدّق هذا على اللّغة، لأنّ الكلمة صورة اللّغة، فالكلمة لا حياة لها - في عُرف باختين - إلّا على ألسنة من ينطقون بها، وكذلك اللّغة لا تحضّر ولا حياة لها إلّا بممارستها من قبل أفراد يتحاورون.⁶⁹

وكما ذكرنا سابقاً يتخلّى ميخائيل باختين - خلافاً لمن سبقه من منظّرين - عن الرّبط بين الرّواية، والمجتمع البرجوازي، باحثاً لها (أي للرّواية) عن جذور تتصل أساساً بالثقافة الشعبيّة، خاصّة الكرنفال، أو الاحتفالات الشعبيّة الساخرة. يذهب باختين إلى أنّ الأدب الكرنفالي، يرفض رتبة الوحدة الأسلوبية التي تجسدها الملحمة، ويرفض أيضاً البيان الخطابي المنمّق، كما يُجسّده الشّعور الغنائي، لأنّ الكرنفال يسعى دائماً إلى خلخلة المركّزة اللّغويّة، فهو يُزاحج بين السّامي والوضيع، يُحرّكه الضحك الشعبيّ وجليّ - حسب باختين - أنّ الكرنفال أفاد الرّواية بمادّة غزيرة وجديدة ومتنوّعة.⁷⁰

إنّ الرّواية التي كانت في عُرف لوكاش، ذلك الجنس الأدبي الذي يتطوّر سعياً لبلوغ شكل ملحّمي - لا بالمفهوم الآلي-، والتي جعل لها غولدمان علاقات وثيقة الصّلة بالبنية الاقتصادية في المجتمع البرجوازي، أضحت في عُرف باختين، شكلاً تعبيرياً يصير ولا يكون، وبعبارة أخرى " لا تصل أبداً إلى نقطة من التطوّر، تتجمّد عندها خصائصها في نموذج ثابت ومحدّد"⁷¹، فهي جنس

تعبيري غير منته، لأنها مرتبطة باللغة، واللغة في تطوّر مستمر.

لأجل ذلك يُركّز باحثين، في تعريفه للرواية على حوارية اللغة الروائية، وتعدّد أصواتها، يقول: "إنّ الرواية ككلّ ظاهرة متعدّدة الأسلوب"⁷²، ويقول أيضا: "إنّ الرواية هي التّنوّع الاجتماعي للغات"⁷³. يُستنتج من ذلك أنّ اللغة تمثّل حجر الزاوية في نظريّة الرواية عند باحثين وبالطبع فإنّ المقصود هنا، اللغة الحيّة التي يُقيّم معانيها أفراد يتحاورون، لا بنيتها الثابتة والمنغلقة (المعجميّة).

اعتمادا على مفهوم الحوارية، وعلى مفهومين متقاربين معه، وهما تعدّديّة الصوت Polyphonie وتعدّديّة اللغة Plurilinguisme، ينتقد باحثين الدراسات التي سبقته، والتي درست الرواية، إمّا عن طريق ربطها شبه الآلي بتطوّر المجتمع الأوروبي، أو بالاهتمام بالنصّ الروائي في سياق منغلق سمّته المركزيّة Centralisation اللغويّة⁷⁴.

تتجلى حوارية اللغة الروائية في ما يسمّيه باحثين طرائق استحضر خطاب الآخر في النصّ الروائي، أو بعبارة أخرى، الوحدات الأسلوبية المشيّدّة لكلّ أجزاء الرواية ويحصرها باحثين في:

أ- الحوار المباشر.

ب- أساليب مختلف الأشكال السردية الشفويّة التقليدية، وسنعرض بعد حين لمفهوم الأسلبة عند باحثين.

ج- أشكال السرد المكتوب المختلفة، ويسمّيها باحثين (نصف الأدبيّة) مثل: الرسائل والمذكرات الخاصّة...إلخ.

د- الكتابات الفلسفية، والأخلاقية... وكل ما لا يدخل في إطار الفن الأدبي.

هـ- خطابات الشخصيات الروائيّة⁷⁵.

ولتفصيل ذلك سنتحدّث عن وسائل تشييد صورة اللغة في الرواية، مستخدمين بعض المصطلحات التي أعمّلها باحثين⁷⁶:

1- الحوارات الصريحة، أو الخالصة Les Dialogues Purs.

2- التّهجين Hybridisation، ولا دلالة سلبية للتّهجين عند باحثين، بل على العكس من ذلك فإنّ التّهجين لديه يُصبح مزيج، ومبعثا على التّجديد، ويقصد باحثين بالتّهجين، التقاء لغتين اجتماعيتين، داخل ملفوظ واحد، ويؤكّد باحثين على ضرورة أن يكون التّهجين قصديّا.

3- تعالق اللّغات، ويعني تشييد لغة الرواية لعلائق مع لغات أخرى، عن طريق إضاءة متبادلة ولكن دون أن يؤدّي ذلك إلى توحيد للغتين داخل الملفوظ الواحد، وللتعالق صيغ يقول بها باحثين وهي:

أ- الأسلبة Stylistique، يُدرجها باحثين ضمن التّهجين القصدي، ومعناها أن تقوم لغة معاصرة بأسلبة لغة أجنبية عنها (تُعيد تشكيلها)، فتأخذ بعض مكوّناتها، وتترك أخرى.

ب- التّنويع Variation، وهو نوع من الأسلبة، يُختبّر من خلاله المؤسّلب، اللغة المؤسّلبة، عن طريق إدراج مادّة أجنبية ضمنها، ويجعلها ذلك في مواقف جديدة، تكون مستحيلة بالنسبة لها (بالنسبة للغة المؤسّلبة).

ج- الباروديا Parodic، تتعارض في هذا النوع الأساس من الأسلبة ، نوايا اللغة المؤسلبية، مع نوايا اللغة المؤسلبية، وتعمل الأولى (المؤسلبية) على فضح الثانية (المؤسلبية) وتحطيمها ويشترط باختين أن يكون التّحطيم قويًا وعميقًا، بحيث يخلق لغة بارودية تتسم بالكلية وتحوز منطقًا داخليًا ، كاشفا لعالم مميّز يتّصل أساسا باللغة التي كانت موضوعا للباروديا⁷⁷.

إنّ الخطاب الروائي يتفاعل مع كلّ ما يطرأ على اللغة، ومن خلالها مع العلاقات الاجتماعية، لأجل ذلك تتسلّل إليه اللهجات واللغات الاجتماعية، وهي لغات مشحونة إيديولوجيا، حتّى أنّ لغة الروائي تغدو لهجة من تلك اللهجات المتسلّلة إلى الرواية فتتفاعل معها⁷⁸، وقد وجد باختين في أبرز النماذج التي اشتغل عليها، نقصد روايات دستوفسكي Dostoevski، تجسيدا حيّا لذلك. إنّ روايات دستوفسكي -حسب باختين- تتميز بتعدد الأصوات، والتمتع بحرية الاختلاف، تحوز ذلك الشخصيات الروائية " حيث يسمح الكاتب لمختلف الشخصيات بالتعبير عن اختلافها بعيدا عن هيمنته كروائي ، وهو ما يجعل من رواياته حوارية"⁷⁹، ليس بالمعنى الضيق لكلمة الحوار، الذي يتجسّد في أصوات عالية ، تصدّر عن أفراد يوجّهون كلاما إلى بعضهم، بل إنّ باختين يقصد التفاعل الكلامي، والنصي مهما كان نمطه يقصد الجهد الكيفي الذي يُضيفه الإنسان إلى جهد آخر معطى. إنّ وجهة نظر باختين التي طوّرت لاحقا، تجعل من العلوم الإنسانية علوما حوارية⁸⁰.

وفي ثنايا حديث باختين عن الحوارية، وعن الحرية التي يمنحها الروائي للشخصيات، يذكر أنّ أبرز سمات الكاتب الروائي ، أن يتحدث في لغة الآخرين عن مراميه ومحمولاته، وعن الآخرين في لغته، ويحقّق هذا الأمر ثنائية لغوية، ويسمّي باختين التفاعل بين لغة الروائي ولغة أو لغات الآخرين، حرفا (بدون تفخيم الرّاء) أو انكسارا Réfraction، وقد أدّى هذا إلى ما يُسمّى بحياة الكاتب، وسنذكر لاحقا أنّ القول بحياة الكاتب قد جرّ على باختين الكثير من النقد.

لن ننتقل إلى الحديث عن حضور باختين في الساحة النقدية، وجملة الانتقادات التي تعرضت لها إسهاماته، دون الإشارة إلى مصطلح مهمّ أعمله باختين، نقصد: مصطلح المغاير Variante وهو من المصطلحات المهمة في الطرح الباختي، ويدلّ هذا المصطلح على نوع أو أنواع مُميّزة داخل جنس تعبيريّ أساس، وبالنسبة للرواية فإنّ لها مغايرات مثل: الرواية النفسية، الرواية التاريخية... إلخ، وكلّها تنفرع عن الرواية-الجنس، ويذكر باختين في كتابه الخطاب الروائي، ما يقرب من سبعة عشر مغايرا للرواية الأوربية⁸¹.

لقد تأخر اكتشاف باختين في الساحة النقدية الغربية، ويعود الفضل في اكتشافه لكلّ من تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov، وجوليا كريستيفا J. Kristeva. وتعتبر هذه الأخيرة أول من عرّف بمفهوم الحوارية، أو التناص Ineter textualité، أو كما عبّرت عنه هي النصوصية أو العبر-نصية، حيث النص لوحة فسيفسائية تشكّلها جملة من الاقتباسات،

وحيث هو عملية امتصاص وإعادة تشكيل لنص أو نصوص أخرى. إنّ التناص يجعلنا نفهم، أنّ الكتابة تصبح حوارا مع الذات، وتواصلًا فنيًا مع نص أو نصوص أخرى متعدّدة⁸².

ويعدّ الناقد السوفيتي مؤسسًا للاتجاه النقدي، الذي سمي بعده بالنقد الحواري، ويصفه بعض النقاد بالمؤسس الفعلي للتداولية La pragmatique⁸³، ولكن حضور باختين وأهميته لا يعني أنّ جهوده لم تتعرض للنقد والتجريح، بالرغم من أن ذلك لا ينقص من القيمة المعرفية لإسهاماته، التي ذكرنا سابقًا أنّها تمثل قطعة مع الإسهامات السابقة في مجال التنظير للرواية.

إنّ حوارية باختين، تُفيد فقط في تحليل بنية العمل الروائي الداخلي، ولا صلاحية لها - في اعتقاد بعض النقاد -، إذا أردنا أن نُعملها في تحديد وظيفة هذا العمل، أي وظيفة الأدب في البنية الفكرية التي تتصارع في الواقع، هذه البنية التي يرفض باختين أن يكون لها أي سرّبال إيديولوجي معيّن، " إنّ جانبًا كبيرًا من المغالطة يكمن في (فلسفة باختين) هذه - إن كانت له بالفعل فلسفة -⁸⁴، ومردّد ذلك إلى أنّ باختين يقول بالحياد المطلق

للكاتب الروائي بالإضافة إلى كون الفكر الباختي، ينحصر ولدرجة كبيرة، في إبراز طبيعة الرواية في ذاتها ولا يمكن أن لا نضيف هنا أنّ باختين اشتغل على نموذج واحد هو الرواية الديالوجية (الحوارية) Roman Dialogique، ممثلة في إسهامات دستوفسكي، أي أنّه أقصى الرواية المنولوجية، التي يطغى عليها صوت كاتبها، واستنادًا إلى ذلك يقول أحد النقاد إنّ من الصعب

الحديث عن نظرية باختين للرواية، وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون حديثًا عن آراء عميقة أبدتها الناقد السوفيتي بخصوص الرواية⁸⁵.

ومن الأسئلة التي يواجهها طرح باختين، أنّ نظريته المستوحاة من طقوس الكرنفال، إن كانت صالحة لمقاربة النصوص الروائية الدستوفسكية فهل هي صالحة لمقاربة نصوص روائية أخرى؟ في أزمنة أخرى؟ ولعلّ هذه الأسئلة هي ما دفع بعض النقاد، إلى اقتراح المزاوجة بين الطرح الباختي، وما قال به غولدمان (قيم التبادل)، فتقارب بطرح باختين ما لا يصلح معه رؤية غولدمان، وبينوية غولدمان ما لا يصلح معه طرح باختين.

إنّ الملاحظة التي سجلناها، ونحن بصدد جمع المادة المعرفية من أجل عرض الأطر العامة للطرح الباختي، المتعلّق أساسًا بالرواية، هي أنّ جلّ ما وقع بين أيدينا من دراسات ومقالات تناولت باختين، عرضًا أو مناقشة، ألحت على قصور هذه الرؤية، وإمكانية تطبيقها على نصوص روائية دون أخرى - نستثني هنا محمد برادة-. ونحن نعتقد أنّ أمرا كهذا، لا يُنقص من قيمة جهود باختين، التي تمثّل صراحة قطعة إبستمية مع ما سبقها من مقاربات جنح أصحابها إلى ربط شبه آلي بين الرواية وتطوّر المجتمع الأوربي، والحقّ أنّ اليقينية الصرفة، عملة علمية لا ينبغي المغالاة في اشتراط حضورها وتحققها، خاصة في مجال العلوم الإنسانية.

إحالات:

¹ الدراسات في هذا الباب كثيرة، نُحيل على كتاب مرتاض (عبد الملك): في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)،

¹²يراجع: فاليت (برنار) ، الرواية (مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي)، ترجمة : عبد الحميد بورايو، دار الحكمة - الجزائر-، ط؟، 2000، ص 10.

¹³لختهايم (جورج) ، جورج لوكاش، ص 34.

¹⁴لوكاش (جورج) ، الرواية ، ترجمة : مرزاق بقطاش، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط؟، ص 07. وكذلك: لوكاش (جورج) ، الرواية كملحمة برجوازية، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة - بروت-، ط 1، 1979، ص 09.

¹⁵دراج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 13.

¹⁶باحثين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ترجمة : حميد حميداني، دار الفكر للدراسات والنشر، ط 1، 1987، ص 11 (مقدمة المترجم).

ويراجع: زيرافا (ميشيل) ، الرواية والأسطورة، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع - سوريا-، ط 1، 1985، ص 21.

¹⁷ساري (محمد)، البحث عن النقد الأدبي الجديد، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1984، ص 15.

¹⁸ينظر : الشمالي (نضال) ، الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، -الأردن-، ط 1، 2006، ص 112.

ويراجع: زيرافا (ميشيل) ، الرواية والأسطورة، ص 23.

¹⁹ينظر : دراج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 13.

²⁰زيرافا (ميشيل) ، الرواية والأسطورة، ص 21.

²¹بينيت (توني) ، سوسيولوجيا الأنواع (عرض نقدي)، ضمن كتاب : القصّة الرواية المؤلف، لمجموعة من المؤلفين، (مذكور إحالة رقم: 2)، ص 174.

²²لوكاش (جورج) ، الرواية، ترجمة: مرزاق بقطاش، ص 50. ويراجع: إبراهيم (عبدالله) ، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2003، ص 64.

سلسلة عالم المعرفة، رقم: 240، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت-، ط؟، 1998، الذي خصّص صاحبه المقالة الأولى للحديث عن نشأة الرواية وتطورها، وعن علاقتها بالأجناس الأدبية، والمجتمع والتاريخ...، ص 11 وما بعدها.

² نذكر تمثيلاً: الدراسات التي ترجمها وقدم لها خيرى دومة وهي موسومة ب: القصة، الرواية، المؤلف (دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة)، مراجعة: سيد بحراوي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط 1، 1997.

³ ينظر: السعافين (إبراهيم) ، تحولات السرد (دراسات في الرواية العربية)، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط 1، 1996، ص 7 و 8.

⁴ دراج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط 2، 2002، ص 5.

⁵ يقصد أحياناً بالنظرية مجموعة من النظريات، ونقصد هنا ذلك ، حيث سنتطرق إلى نظرية الرواية عند لوكاش ، ثمّ عند الأعلام الذين ذكروا آنفاً (في المتن).

⁶ ينظر: لختهايم (جورج) ، جورج لوكاش، ترجمة: ماهر الكيالي ويوسف شويري، مراجعة وتقديم: أسعد رزق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1982، ص 81.

⁷ هالبرين (جون) ، نظرية الرواية (مقالات جديدة)، ترجمة: محي الدين صبحي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - سوريا-، ط؟، 1981، ص 515.

⁸ ينظر: دراج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 09.

⁹ ينظر: حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1990، ص 61.

¹⁰ دراج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 09.

¹¹ ينظر : هالبرين (جون) ، نظرية الرواية، ص 515،

ويراجع : جورج لختهايم، جورج لوكاش، ص 21 و 22.

38 حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 65.

39 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 33.

40 ينظر : السّعافين (إبراهيم) ، تحولات السرد، ص 8 و 9. يراجع: درّاج (فيصل) ، المرجع السابق، ص 34 و 35.

41 ينظر كل من: -باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ص 13 و 14 (مقدمة المترجم).

- ساري (محمد) ، البحث عن النقد الأدبي الجديد، ص ص 25/21.

42 لوكاش (جورج) ، الرواية، ترجمة : مرزاق بقطاش، ص 23.

43 غولدمان (لوسيان) ، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ترجمة: بدر الدين عرودكي، دار الحوار للنشر والتوزيع- سوريا، ط 1، 1993، ص 13.

44 ينظر : مجموعة من المؤلفين، القصة الروائية المؤلف (دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة)، ترجمة وتقديم: خيري دومة، ص 11 (مقدمة المترجم).

45 حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 55.

46 المرجع نفسه، ص 73.

47 للمزيد من التفصيل حول الأشكال الثلاثة ، التي تعامل من خلالها علم الاجتماع مع الرواية، يراجع : المرجع نفسه، ص ص 55/94.

48 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 40.

49 المرجع نفسه، الصفحة نفسها. ويراجع حول مسألة الفرد الإشكالي الغولدماني : مقدمة كتابه (الإله الخفي)، ضمن كتاب: خشفة (محمد نديم)، تأصيل النص (المنهج البنيوي التكويني لدى لوسيان جولدمان)، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 1997، ص ص 44/47.

50 جولدمان (لوسيان) ، مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية، ضمن كتاب (القصة الرواية المؤلف)، مرجع مذكور، ص 113.

23 ينظر : درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص ص 22/16.

24 ينظر باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ترجمة: حميداني (حميد) ، ص 10 (مقدمة المترجم).

25 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

26 ينظر درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 24.

27 المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

28 نفسه ، ص 25.

29 نفسه: ص 25 و 26. ويراجع حول مسألة الزمن في الرواية تمثيلاً: القصاروي (مها حسن) ، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط 1، 2004، ص ص 60/36.

30 لختهايم (جورج) ، جورج لوكاش، ص 6. وينظر كذلك: ص ص 14/9.

31 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 26.

32 المرجع نفسه، ص ص 27/25.

33 مرتاض (عبد الملك) ، في نظرية الرواية ، ص 28.

يراجع كذلك: علقم (أحمد صبحه) ، تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية (الرواية الدرامية أنموذجاً)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2006، ص 26. و:

باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ص 10.

34 لختهايم (جورج) ، جورج لوكاش، ص 6. وللمزيد يراجع: حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1990، ص 63، ويراجع أيضاً: العربي ساردي (عبد القادر)، حدود القراءة في الخطاب السردى لرواية (المرأة والوردة) مقارنة بنيوية، رسالة ماجستير (مخطوطة)، جامعة وهران، 2006/2005، ص 89.

35 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 28.

36 المرجع نفسه، ص 30. وللمزيد يراجع : ساري (محمد) ، البحث عن النقد الأدبي الجديد، ص ص 39/25.

37 ينظر : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

57 المرجع نفسه، ص 11. ويراجع: ساري (محمد)،
 المرجع السابق، ص 53 و 54.
 58 نفسه ، الصفحة نفسها.
 59 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 52.
 60 ينظر : حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا،
 ص 66 و 67. وللمزيد من التفصيل يراجع: غولدمان
 (لوسيان)، مقدمة في سوسيولوجية الرواية، ص 24 و
 25.
 61 المرجع نفسه، ص 70.
 62 إبراهيم (عبد الله) ، السردية العربية الحديثة، ص 66.
 وللمزيد حول إسهامات غولدمان عامة، يراجع: الجيار
 (مدحت) ، النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء
 لدنيا الطباعة والنشر، ط؟، 2001، ص ص 79/55.
 63 barthes (Roland) , essais critique, seuil, 1964, p 252. نقلا عن:
 حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 71
 64 ينظر: درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص
 ص 62/57.
 65 ينظر: باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ترجمة:
 محمد برادة، ص 15 (مقدمة المترجم). ويراجع: ساري
 (محمد) ، المنهج السوسيونقدي... بين النظرية والتطبيق، مجلة
 الأدب واللغة، جامعة الجزائر، العدد: 15، أبريل 2001،
 ص 52.
 66 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 66.
 67 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
 68 نفسه، ص 66.
 69 نفسه ، ص 67.
 70 ينظر: السّعافين (إبراهيم) ، تحولات السرد، ص ص
 11/9. ويراجع: البازعي (سعد) والرويلي (ميجان) ،
 دليل الناقد الأدبي، ص 213.
 71 بينيت (توني) ، سوسيولوجيا الأنواع (عرض نقدي)،
 ضمن : القصة الرواية المؤلف (مذكور)، ص 176.
 72 باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ص 38.

51 درّاج (فيصل) ، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 43.
 ويراجع: يعقوب (ناصر) ، اللغة الشعرية وتحليلاتها في الرواية
 العربية (1970-2000)، المؤسسة العربية للدراسات
 والنشر، ط 1، 2004، ص 145.
 52 بينيت (توني) ، سوسيولوجيا الأنواع (عرض نقدي)،
 ضمن القصة الرواية المؤلف (مذكور)، ص 174.
 53 نقصد اضمحلال الشكل الروائي التقليدي الذي ينحو
 نحوًا بالزكيا (نسبة إلى الروائي بالزك)، وهو الشكل الذي
 يمنح الشخصية أهمية كبيرة ويجعل منها محركًا محوريًا يقوم
 عليه البناء الروائي، وقد أخذت بوادر اضمحلال هذا
 الشكل بالظهور انطلاقًا من إسهامات فرانز كافكا
 Franz Kafka وجيمس جويس. James Joyce، وتطوّرت مع صدور الأعمال الأولى لكثير من
 كتّاب الرواية الجديدة نذكر منهم: آلان روب-غرييه A Robbe-Grillet، وتالي ساروت Nathalie Sاروت،
 وميشال بوتور M. Butor ، وهي الكتابات التي
 اصطلح عليها اسم الرواية الجديد.. أو بتعبير جون بول
 سارتر J. Paul Sartre (ضد الرواية). Anti Roman)، وسنتطرق لذلك بعد إنهاء عرض إسهام كل
 من غولدمان وميخائيل باختين.
 54 ينظر : غولدمان (لوسيان) ، مقدمة إلى مشكلات علم
 اجتماع الرواية، ضمن القصة الرواية المؤلف (مذكور)، ص
 113.
 55 خشفة (محمد نديم) ، تأصيل النص، ص 19. من
 أجل مزيد من التفصيل حول البنيوية التكوينية، يراجع:
 مقالة غولدمان الموسومة بـ (المنهج البنيوي التكويني في
 تاريخ الأدب) ضمن الكتاب نفسه، ص ص 78/55.
 ويراجع أيضًا: البازعي (سعد) والرويلي (ميجان) ، دليل
 الناقد الأدبي ، ص ص 44/41.
 56 خشفة (محمد نديم) ، تأصيل النص ، ص 44.
 ويراجع أيضًا : ساري (محمد) ، البحث عن النقد الأدبي
 الجديد، ص ص 43./41

⁸⁰ ينظر : الدغمومي (محمد) ، تأويل النص الروائي، ضمن كتاب (من قضايا التلقي والتأويل)، وهو عبارة عن أعمال ندوة نُظمت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، نوفمبر 1992، ط1، 1994، ص 47 و 48. ⁸¹ ينظر : باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ص 19 (مقدمة المترجم)، ولتوضيح أكثر يراجع: نفسه، ص ص 170/129.

⁸² ينظر : kristeva(j) , rechreches pour une sémanalyse, seuil, paris, 1969, p 149.

-يراجع حول الحوارية: زيتوني (لطيف) ، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون-بيروت، ط1، 2002، ص 83.

وحول التناص: المرجع السابق، ص 63. و Reuter (yves), l'analyse du récit, nathan, paris, 2003, p 109.

⁸³ يراجع: بوزيدة (عبد القادر) ، ملاحظات ومقارنة بين بعض الاتجاهات التداولية (باختين ومانقونو نموذجاً)، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد:17، 2006، ص 37.

⁸⁴ لحميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 49.

⁸⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص 51 و 52.

⁷³ المرجع نفسه، ص 39. وللمزيد يراجع: نفسه، ص 39 (خاصة الفقرة الأولى).

⁷⁴ ينظر : حميداني (حميد) ، النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 79.

⁷⁵ ينظر : باختين (ميخائيل) ، الخطاب الروائي، ص 38. ويراجع أيضاً: باختين (ميخائيل) ، الكلمة في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة -دمشق-، ط1، 1988، ص 10.

⁷⁶ ينظر : المرجع نفسه، ص 18 (مقدمة المترجم). - يستلهم الناقد السوري سليمان (نبيل) ، أفكار باختين، في دراسة شيقة عنوانها (جمالية الكلمة الروائية) يقارب من خلالها رواية (التفكك)، للروائي الجزائري رشيد بوجدر، يراجع كتابه: فتنة السرد والنقد، دار الحوار للنشر والتوزيع-سوريا، ط2، 2000، ص ص 141./127.

⁷⁷ يراجع : المرجع نفسه، ص ص 31/27، وفصل التعدّد اللغوي في الرواية، ص ص 98/73. ويراجع كذلك: ساري (محمد) ، المنهج السوسيو نقدي بين النظرية والتطبيق، ص 53 و 54.

⁷⁸ ينظر : بوزيدة (عبد القادر) ، فلسفة اللغة والمبدأ الحوارية عند باختين، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد:2001، 15، ص 70 و 71.

⁷⁹ البازعي (سعد) والرويلي (ميجان) ، دليل الناقد الأدبي، ص 212.